الذاكرة والتمثيل الاجتماعي في طوابع الحماية الإسبانية بالمغرب

Memory and Social Representation in the Spanish Protection Stamps in Morocco

محمد المنتفع
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين جهة كلميم وادنون المغرب

تاريخ الارسال : 2019-05-21	تاريخ القبول : 2019-06-10	تاريخ النشر : 2019-11-27

الكلمات المفتاحية: الطابع البريدي؛ الذاكرة؛ الدعاية؛ الاثنوغرافية؛ الحماية الإسبانية.

ملخص:

أضحت الطوابع البريدية اليوم مرجعا وثائقيا مهما لا يمكن الاستغناء عنه، نظرا لما تحمله من مواضيع ذات أهمية كبيرة، خاصة تلك المتعلقة بالمرحلة الاستعمارية، من خلال تجسيد الذاكرة التاريخية للمستعمرات وإضفاء شرعية الاحتلال عليها، واعتراف المجتمع الدولي بسيادة المستعمر على تلك المناطق بعد أن سوق الأطروحات التحقيرية عنها، والتي شملت تشويه عاداتها وتقاليدها، وعرض الجانب الفيزيولوجي للإنسان الإفريقي بشكل مشوه في محاولة منها تدجينه وترويضه.

لذا، يروم هذا المقال إلى البحث عن جدة هذا التوجه في الكتابة التاريخية خاصة بعد أن أصبح الطابع البريدي يشكل موضوعا مشوقا ومثيرا للباحثين في التاريخ الثقافي وتاريخ العقليات والتاريخ الاجتماعي.

ABSTRACT

Postage stamps today has become an important reference documentary indispensable, Because of what it carries subjects of great importance, especially those relating to the colonial phase, Through the embodiment of the historical memory of the colonies and to legitimize the occupation on them, And the recognition of the international community's sovereignty over those areas colonized after the presentation of theses derogatorily about them, Which included the distortion of customs and traditions, and presented the physiological side of African man in a distorted manner in an attempt to domestication and tame.

So, this article aims to find the novelty of this trend in historical writing, especially after the Postage stamps has become a subject interesting and exciting for researchers in the history of culture and the history of mentalities and social history.

Key words: Postage stamps; memory; Propaganda; ethnographic; Spanish protection.

مقدمة

أصبحت الطوابع البريدية، التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، من المواد الأرشيفية المهمة في الكتابة التاريخية، خاصة الطوابع التي أنتجتها المؤسسات الاستعمارية في المناطق الإفريقية والأسيوية، باعتبارها مواد شاهدة على وقائع تاريخية معينة للدول الاستعمارية والمستوطنات التابعة لها، ورغم أنها تكرس، في أحايين كثيرة، تمثيلا اجتماعيا فظا ومشوها عن شعوب المستعمرات الإفريقية وتزييف حقائقها التاريخية وتقزيم مقوماتها الحضارية باستعراضها لبعض الظواهر الاجتماعية والثقافية بشكل مشوه على غرار باقي الإنتاجات الاستعمارية الأخرى(1)، ومع ذلك، فإنها تشكل موضوعا مشوقا ومثيرا في التاريخ الاجتماعي خاصة مسألة "الذاكرة والتمثيل الاجتماعي" « Mémoire et de Représentation Sociale ». وقد وظفت الدول الإمبريالية هذه الإنتاجات كوسيلة لفرض وجودها في المناطق التي سيطرت عليها لنشر دعايتها الاستعمارية والتعريف بحسنات استعمارها لهذه الأمكنة، وبالفعل تم استغلال هذه الطوابع بطرق مختلفة وفق الأحداث والأزمنة، مثل الحرب الدعائية التي قامت بها السلطات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية والألمانية وغيرها من القوى بمستوطناتها الإفريقية خلال الحرب العالمية الثانية(2). فما هي خلفيات الإنتاجات التصويرية الإسبانية عن المشهد المحلي بالمغرب؟ وهل كانت وظيفتها نزيهة بعيدة عن كل الشبهات التي لازمت باقي الإنتاجات الأدبية الأخرى أم كانت وسيلة للدعاية والتبشير والغزو الثقافي الأوربي ونشر حسنات الاستعمار بالمناطق المحتلة؟

1. الطابع البريدي الإسباني وإحياء الذاكرة

أنشأت الحكومة الإسبانية خدماتها البريدية بالمغرب في نفس الوقت الذي كان فيه البريد الفرنسي أي عام 1860. وكانت تملك مكتبا في طنجة وفي كل الموانئ، وكان لها خط يربط طنجة بطريفة Tarifa لمدة عامين كان خارج الخدمة إلى أن تم تجديده عام 1905.(3) ورغم أن إدخال الطوابع الإسبانية إلى المغرب جاء متأخرا مقارنة مع الدول الأخرى، إلا أنها ازدادت وتنوعت بعد سنة 1928، متخذة عدة أسماء، من قبيل طابع "**بريد إسبانيا**"، وطابع "**المغرب**"، وطابع "**حماية إسبانيا في المغرب**"، وطابع "**بريد إسبانيا– طنجة**"، وطابع "**الحماية الإسبانية في المغرب**". وظهر، في نفس العام، أول طابع إسباني بزخارف محلية، وقد فرض بشكل نهائي خلال مرحلة الجمهورية الثانية(4).

وحملت الطوابع الإسبانية المنطقة الجنوبية تمثيلا اجتماعيا تخليدا لرموزها الوطنية الفاعلة في السياسة الأهلية، وعلى سبيل التمثيل فقد أصدرت طوابع مستعمرة "**ريو دي أورو**" سنة 1914 موشحة بعبارة "**كابو جوبي**"، تحمل صورة الملك "**ألفونسو الثالث**

عشر" ملك إسبانيا مشتملا على الفئات الآتية: 4 Pta وردي، و10 Pta بنفسجي داكن، و50 C بني (**الطابع رقم 1**)، و1 Pta بنفسجي. وفي عام 1919 أصدرت طوابع تحمل نفس موضوع طوابع سنة 1914، وتتكون من الفئات الآتية: 2 C بني، 5 C أخضر، 10 C أحمر، 15 C أحمر- بني، و20 C برونزي، و25 C أزرق، و30 C أخضر - أزرق، و40 C أحمر قرمزي، و50 C أزرق- أخضر، 1 Pta وردي أحمر، و4 Pta بنفسجي بني، و10 Pta أصفر- برتقالي (**طابع رقم 2**).[5]

ولجأت الإدارة الإسبانية إلى استخدام الطوابع، التي أصدرتها سنة 1928 والموشحة بـ "**كابو جوبي**"، مع بداية عام 1934 في الجزء الجنوبي من المستعمرة[6]. وكانت خاصة بالمراسلات العاجلة، تضم الفئات الآتية: 2 و5 و10 و15 و25 و1 C، و2,50، و4 ptas و20 C، وهي طوابع تتطابق مع السلسلة رقم 1 والمعدلة في عام 1931، وطوابع السلسلة رقم 2 التي صدرت ما بين 1933 و1935، والمكونة من فئة 1 و10 و20 و30 و40 و50 C.[7] وأصدرت في سنة 1921 طوابع تحمل صورة الملك "**ألفونسو الثالث عشر**" ملك إسبانيا موشحة بعبارة "**الكويرة**" "**LA AGUERA**"، وتتكون من فئة 1 C أخضر - أزرق (**الطابع رقم 3**)، و2 C بني داكن، و5 C أخصر، 10 C قرمزي، و15 C أصفر، و20 C بنفسجي، و25 C أزرق، و30 C بني، و40 C بلون وردي، و50 C أزرق فاتح، و1 Pta قرمزي، و4 Pta بنفسجي، و10 Pta برتقالي. كما أصدرت طوابع بريدية متعددة الألوان بمنطقة الصحراء المغربية خلال سنة 1923، تحمل صورة الملك "ألفونسو الثالث عشر" ملك إسبانيا، موشحة بعبارة "**الصحراء الغربية – الكويرة**" "**SAHARA OCCIDENTAL – LA AGUERA**"، وتتضمن الفئات الآتية: 1 C أزرق، و 2 C أخضر داكن، و5 C أخضر مزرق، و10 C أحمر (**الطابع رقم 4**)، و15 C بني أحمر، و20 C أصفر، و25 C أزرق، و30 C بني، و40 C قرمزي، و50 C بنفسجي، و1 Pta بنفسجي، و4 Pta بنفسجي، و10 Pta برتقالي[8].

وأصدرت خلال سنة 1935 الحكومة الإسبانية طابعا خاصا بالذكرى المئوية الثالثة لوفاة الكاتب المسرحي والشاعر الإسباني "**لوبي دي فيغا**" **Lope de Vega**، واشتمل على مواضيع مختلفة، متخذا شكلا مسننا. ويتضمن الفئات الآتية: 15 C أخضر (**الطابع رقم 5**)، ويحمل **ex libris of Lope Vega**، وطابع من فئة 30C أحمر قرمزي، يحمل صورة هذا الرمز الأدبي، وآخر من فئة 50 C أزرق داكن حمل هو الآخر صورة لوبا دي فيغا. وحمل طابع

أسود من فئة 1 Pta (**الطابع رقم 6**) إنتاج لمشهد من مسرحية "**بيربانيث**" **Peribanez** يصل سعره إلى 1 بياستر[9].

وقد وصل عدد الطوابع التي أصدرتها الحكومة الإسبانية بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لوفاة هذا الكاتب إلى ما يلي: من فئة 15 C أخضر: 3000000 طابعٍ، ومن فئة 30 C أحمر – قرمزي: 20000000 طابعٍ، ومن فئة 50 C أزرق داكن 1000000 طابعٍ، وصل طابع من فئة 1p بلون أسود حوالي 500000 طابعا.[10] ومن أجل إحياء ذكرى بعثة "**إيغليسياس**" **Iglesias** إلى الأمازون، قررت الحكومة الإسبانية بالاتفاق مع دار الصناعة الوطنية للعملة والطوابع Nacional Fabrica de Moneda y Stamp إعداد طابع بريدي من فئة 0,30 باللون الأحمر، وسوف يتم تداول مليون نسخة، وسيتم تعميمها بدءا من 8 أكتوبر 1936 إلى غاية استنفاد نسخه[11]. كما تمت الموافقة على إصدار طابع تكريما لبعض الصحفيين الإسبان البارزين من قبل مجلس الوزراء، وكان من ضمن هذه الرموز المختارة "**ألكسندر ليروكس**" **Alexandre Lerroux**.[12]

وبالإضافة إلى ذلك، وظفت إسبانيا كمثيلاتها من الدول الاستعمارية، الطابع البريدي في خدمة مصالحها، من خلال تكريس حضورها الاستعماري في الطابع عبر تصوير مشاهد حول مختلف الإنجازات في التنمية الاقتصادية، وركزت منذ عام 1936 إلى غاية 1945 على فكرة الإمبراطورية والجيش، وبعد الحرب أصبح الجنرال "**فرانكو**" أيقونة الطابع البريدي في كل مكان[13]، وقد انبنت سياسته على إعطاء البحث والدعاية لأهمية العلاقات التاريخية والثقافية بين المغرب وإسبانيا[14]. وبمناسبة الذكرى السنوية الأولى للثورة أصدرت سنة 1937 طوابع بريدية مطبوع فوقها عبارة "**كابو جوبي**" "**CABO JUBY**"، يشتمل على الفئات الآتية: 1 C أزرق- رمادي، 2 C بني أحمر، و5 C بنفسجي أحمر، و10 C أخضر فاتح، C 15و أزرق، و20 C بني بنفسجي، و25 C بنفسجي، و30 C أحمر، و40 C أحمر- برتقالي، و50 C أزرق داكن، و60 C أخضر- أصفر، و1 Pta بنفسجي، و2 Pta أخضر- أزرق، و 2.50 Pta أسود، و4 Pta بني داكن، و10 Pta أسود (**الطوابع من رقم 7 إلى 13**).[15]

ويتكرر تجسيد حضور رموز الحماية الإسبانية في الطوابع البريدية، خاصة صور الجنرال "فرانكو" في الطوابع التي أصدرت في 19 أكتوبر 1950 (**طابع رقم 14**)، مشتملا على الفئات الآتية: 50+10 C بني داكن، و1+25 Pta/C أزرق داكن، و6.50+1.65 Pts أخضر داكن، وقد بلغ عدد الإصدارات 50000 طابعٍ. كما وشحت طوابع 18

يوليو 1951 بصورة الجنرال "فرانكو"، من فئة 50 C برتقالي، 1 Pts بني بنفسجي، 5 Pts أخضر-أزرق. وبلغ عدد نسخه 36000 طابعٍ (**طابع رقم 15**). وأصدرت طابع من فئة 5 Pts بني 18 يوليوز 1952 احتفاء بالذكرى الخمسمائة سنة على ميلاد الملك "**فرديناند الثاني**" (**طابع رقم 16**)، ووصل عدد إصداراته 50000 طابعٍ. وأصدرت طوابع بريدية عام 1952 تخليدا للذكرى السنوية الأربعمائة لوفاة الجغرافي "**ليون**"، تحمل مشاهد عمرانية لمستعمرة "سيدي إيفني"، وتشتمل على الفئات الآتية: 5 C برتقالي، و35 C أخضر زيتي، و60 C بني، وقد بلغ عدد إصداراته 500000 طابعٍ (**طابع رقم 17**). وأصدرت يوم 18 يوليوز 1951 طابعا بريديا يحمل صورة الجنرال "فرانكو"، موشحا بعبارة "**الصحراء الإسبانية**"، وكانت جميعها مختلطة الألوان، وتتكون من الفئات الآتية: 50 C، و1 Pta، 5 Pta، وقد بلغ عدد إصداراتها 36000 طابعٍ (**مثال طابع رقم 18**)[16].

ومن الملاحظ أن إدماج رأس الجنرال "فرانكو" في الطابع البريدي بالمنطقة الجنوبية، تم بشكل سيء داخل الطابع البريدي، بحيث يبدو، إنه فرض على المشهد المحلي، وهو في الآن نفسه خطاب موجه ضد الجمهوريين، حيث في أواخر عام 1939 أعلن رسميا عن انهزامهم واستيلاء الجيش بزعامة "فرانكو" على الحكم، الذي اتسم في منطقة الحماية بالمغرب باهتمام لم يسبق له مثيل، حيث شرعت إسبانيا في الرهان على ما يسمى بـ "**سياسة فرانكو العربية**"، والتي هدفت إلى إضفاء الشرعية على الحضور العسكري الأفريقاني بالمنطقة واستعمال منطقة الحماية كقنطرة عبور لتعزيز علاقات إسبانيا مع العالم العربي وكسر العزلة التي عرفتها،[17] وليكون المغرب مستعمرة إسبانية وليست مستعمرة أوربية، وأن يكون مستقلا ومتحضرا حليفا لإسبانيا[18].

وأصدرت الحكومة الإسبانية خلال سنة 1952 طابعا بريديا من فئة 5 Pta متعدد الألوان بمناسبة الذكرى السنوية الخمسمائة لميلاد الملك "**فيرديناند الخامس**"، ويجسد رمز الدين والمسيحية. وبمناسبة الذكرى السنوية الـ 75 لتأسيس "الجمعية الجغرافية الملكية" أصدرت السلطات الاستعمارية الإسبانية في 2 مارس 1953 طوابع بريدية متعددة الألوان (**مثال طابع رقم 19**)، شملت الفئات الآتية: 5 C و35 C و60 C، وكان موضوعها العلوم التقنية والجغرافيا، وبلغ عدد إصداراتها 351000 طابعٍ. وفي 1 يونيو 1955 أصدرت طوابع لرعاية الطفولة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد "**إميليو بونيلي**" **Emilio Bonelli**، 1854-1926، باعتباره قائدا عسكريا فاعلا في السياسة الاستعمارية الإسبانية بإفريقيا، ويتضمن الفئات التالية: 10+5 C

بنفسجي- وردي، و25+10 C بنفسجي، و50 C زيتي بني، وبلغ عدد نسخه 600000 طابعٍ (مثال طابع رقم **20**)[19].

وأصدرت الحكومة الإسبانية في 1 أكتوبر 1961 طوابع بريدية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لترشيح الجنرال "فرانكو" كرئيس للدولة، وخريطة مستعمرة الصحراء، موشحة بعبارة "**الصحراء الإسبانية**"، وتجسد صور عن الهندسة المعمارية، والكنسة، وذلك لتكريس رموز ومعالم الاحتلال الإسباني بالمنطقة، ويتضمن الفئات الآتية: C 25، C 50، C 70، 1Pta (**مثال طابع رقم 21 و22**)، وقد بلغ عدد إصداراتها 450000 طابعٍ. وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لانتهاء الحرب الأهلية الإسبانية أصدرت الإدارة الإسبانية في 22 فبراير 1965 طوابع بريدية من فئة 50 C أخضر داكن، و1 Pts أحمر- برتقالي، و1.50 Pts أزرق داكن، بلغ عددها 750000 طابعٍ. وكان موضوعها نهاية الحرب، والتعليم، والنقل، والمزايا الاستعمارية الأخرى التي يمكن لحكومة "فرانكو" تقديمها لسكان المستعمرة بسيدي إيفني (**طوابع رقم 23 و24**).[20]

وفي مقابل إحياء الإدارة الإسبانية ذاكرة الرموز الوطنية والشخصيات الفاعلة في السياسة الاستعمارية، قامت بتهميش الرموز المحلية، وتغييبها عن المشهد المحلي، باستثناء الاحتفاء بسعاة البريد المحليين، فأصدرت بتلك المناسبة في 23 نونبر 1959، موضوعها سعاة البريد أو "الرقاصة" الذين قدموا خدمة كبيرة للبريد الإسباني في المنطقة الجنوبية بنقل الرسائل العادية والعاجلة. (**مثال طوابع رقم 25 و26 و27**)، تتكون من الفئات الآتية: C 5+10 وردي- بني، وC 5+20 أخضر- بني، وC 20+50 أوردوازي- أخضر- زيتوني. وقد بلغ عدد إصداراتها 901000 طابع[21]. وأصدرت في 23 نونبر 1968 طوابع أخرى من فئة 1 Pta متعدد الألوان، و1.50 Pta أخضر زمردي- أخضر- أزرق، و2.50 Pta متعدد الألوان. وبلغ عدد إصداراتها 525000 طابعٍ. وكان موضوعها هو الآخر الاحتفاء بسعاة البريد الصحراويين (**طابع رقم 28**)[22].

وهكذا، فإن المشروع الاستعماري لم ينحصر على جلب أشيائه المتحضرة إلى إفريقيا فقط، بل ركز على الجانب الاجتماعي لسكان المغرب الصحراوي لخلق وهم عند المتلقي الأوربي والإفريقي بأهمية الاستعمار وحسن نوايا المستعمر، فحملت بذلك الطوابع البريدية، كوسيلة للدعاية، رموز رعاية الطفولة، ورموز التعاون بين الأوروبيين والسكان المحليين، مثل التضامن مع ضحايا الفيضانات التي أصابت إسبانيا، فأصدرت بتلك المناسبة في 6 مارس سنة 1958 ثلاث طوابع بريدية تتركب من الفئات الآتية: C 5+10، وC 10+15، وC 10+50. وبلغ عدد إصداراتها 1037000 طابعٍ. وكان موضوعها: الحيوانات والطيور، وشعار النبالة الإسباني. وتضامنا مع ضحايا

فيضانات إشبيلية أصدرت في 29 يناير 1963 طابعين بريديين من فئة 50 C بلون بني زيتي، و1 Pta بني برتقالي موشحين بعبارة "**مساعدة إشبيلية**"، وبلغ عدد إصداراهما 1050000 طابعا. كما أصدرت طوابع بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين للسلام في 22 فبراير 1965، وتتضمن الفئات الآتية: 50 C زيتي- بني، و1 Pta أحمر بني، و1.50 Pta أزرق. بلغ عدد إصدارات تلك الطوابع 750000 طابعا، واشتمل على المزايا الاستعمارية الإسبانية في المنطقة.[23]

لقد تميزت الصورة التي أنتجتها دوائر الفكر الاستعماري الإسباني عن الأهالي بالجنوب المغربي بعمقها وقوتها، في محاولة منها تدجين وترويض السكان الأصليين، عن طريق توظيف الطوابع البريدية[24]، لتصبح بذلك وثيقة تصويرية لها ما يبررها في الحقل الاستعماري، حيث تذكرنا بالتوسع الإمبريالي وظهور النظرة الإتنوغرافية، والغموض العميق الذي لف العلاقة بين الخطاب العلمي والهيمنة الاستعمارية[25].

1- الإنسان والبيئة الصحراوية في الطابع البريدي

كانت مواضيع الطوابع البريدية الإسبانية غالبا ما تتضمن صورا للأهالي ذكورا وإناثا، وتشتمل أيضا على أيقونات تعبر عن مظاهر حياتهم اليومية، مثل ممارسة الزراعة والصيد،[26] وصورا للمناظر الطبيعية والنباتات والحيوانات، وركزت، بشكل كبير، على العادات والتقاليد المحلية[27]. وهي مواضيع تحمل نظرة أنثربولوجية للسكان الأصليين، ونجدها، بشكل واضح، في فترة ما بين الحربين، حيث تسريحات الشعر، ومظهر الزينة، والألبسة المحلية لكلا الجنسين، والجذير بالذكر، أنها نقوش وهيئات تتخذها جميع مستعمرات القارة الإفريقية تقريبا[28]. وكان الهدف من ذلك "**فهم ميكانيزمات التركيب الاجتماعي من عادات وتقاليد وممارسات، لكي يفرغها من محتواها في كيانه، وذلك في فضاء مشروع سياسة الإلحاق**"[29].

ورغم وضوح صورة الطابع البريدي وجودتها أحيانا، فإن أغلب الشخصيات التي تم تصويرها تشير إلى صور غريبة ومثيرة للخيال في أحيان كثيرة[30]، حيث اصطبغت بالتوحش والتشويه، فالاستعمار يرى فيها مجتمعات فقيرة بدائية، تنتظر قوة أوربية لإعادة النظام إليها وتطوير طاقاتها وتحقيق الرفاهية لجميع سكانها[31]. وخير مثال على ذلك طوابع منطقة "سيدي إيفني" التي أبرزت من خلالها الحماية الإسبانية نمط الحياة التقليدية للأهالي، وأعطت أهمية كبيرة للحيوانات في المنطقة (**طوابع رقم 29 و30 و31 و32 و33**)، لكن الشيء الغريب هو أنه من عام 1959 تم إدخال المزيد من عناصر الحداثة الأوربية مثل وسائل (الموانئ والطائرات والشاحنات والقوارب والتيليغراف والعربات) والرياضة الأوربية، مثل كرة القدم، ورمي الرمح، والوثب الطولي، والسباحة، وركوب

الدراجة النارية (**طوابع رقم 34 و35**) والعديد من الخدمات كالمستشفيات، والمدارس، ومكاتب البريد، والكنيسة (**طوابع رقم 36 و37**)، وكان الهدف من ذلك تقديم منطقة "سيدي إيفني" الحديث له علاقة حقيقية مع إسبانيا[32].

كانت الحكومة الإسبانية تلجأ، أحيانا، إلى عدم تشويه وتزييف مشاهد الحياة اليومية للسكان المحليين مستعرضة إياها في شكل مقروء من قبل المتلقي الإسباني فاحصة مختلف مكونات الثقافة في شكل متكامل، دون غض النظر عن تسجيل متتالٍ للمنجزات الأجنبية[33]، وذلك في محاولة لبناء صورة حول أفراد وشعوب مستعمرات المناطق الخاضعة لها بما يتلاءم وسياستها الاستعمارية، وهو ما أدى، في النهاية، إلى خلق هوة كبيرة بين الإسبان المتحضرين والسكان المحليين الذين يعيشون حياة البساطة، لكن بمظهر فيزيولوجي فيه نوع من التحقير والدونية، مما كرس لفكرة تراتبية أجناس هذه القارة، فكانت أيديولوجيتها ترتكز على أساس: "**واجب الأجناس العليا تحضير الأجناس السفلى**"[34]، باعتبارها أجناس مختلفة عن الجنس الأوربي المتحضر، فهم "**لا يأكلون ما نأكل ولا يشربون ما نشرب ولا يتكلمون لغتنا، لا يعبدون إلهنا، ولا يقدرون الأشياء مثلنا... أما هم فلا يملكون شيئا عدا بعض الخراف والبقر العجاف**"[35]، ونجد هذه التمثلات واضحة في الطوابع التي صدرت بمنطقة "سيدي إيفني" و"كابو جوبي" وباقي المناطق الصحراوية الخاضعة للسيطرة الإسبانية (**طوابع** من رقم **38** و**39** و**40**).

كما شملت النظرة التحقيرية والدونية الصورة الجسدية للمرأة المحلية التي جسدتها في صور اتخذت أشكالا متنوعة (**الطوابع من رقم 41 إلى 51**) ركزت على اللون والأنف والشفاه والشعر والجسم، واعتبرتها أصغر حجما ذات وجوه مختلفة، وشفاه قوية وعيون غارقة، أما نظراتهم فهي نظرة مجللة بالسواد واللمعان ومكتنزة بالدهان والخضاب مثل باقي النساء المغربيات[36]، وهن كغيرهن من النساء المحليات يزاولن طوال اليوم الأعمال المنزلية، ويمارسن الرقص والغناء. ومن ثمة، فهن لا يشبهن أبدا النساء الأوربيات، واللواتي يوصفن بالصفات الحسنة، وكان الهدف من ترويج هذه الصورة جعل الآخر الإفريقي يتقبل الاستعمار، انطلاقا من اقتناعه بقبح وجمالية هذه الصور[37]، والتي غالبا ما تؤكد دونية مجتمعات المستعمرات، وهي دونية موجودة في جيناته مما يعني أن المستعمر هو نوع من البشر غير المكتمل التكوين، فهو ناقص إذا ما قورن بالإنسان الأوربي المكتمل التكوين[38]، مما يستوجب اكتمال تكوينه وإعادة تشكيله عبر إدخال الحداثة والتحضر له، وبالطبع هذا التحضر كما تدعيه الإدارة الاستعمارية لا يقوم إلا بعد فهم العالم الأوربي لتخلف

ووحشية هذه الشعوب التي لا خيار لها إلا الاندماج في الحضارة الأوربية[39].

لقد تعددت طرق تمثيل الأجنبي، ذكورا وإناثا، في الثقافة الغربية وبالتحديد في الثقافة الإسبانية عن طريق إبراز صورته وتقديمها جاهزة إلى المتلقي الأوربي، شكلت نظاما محكما وجد في كل محافل الإنتاج الثقافي والفني والإعلامي التي تنافست في صناعة الصورة التي ستصبح صورا نمطية، وكأي صورة نمطية بمجرد ما يتم تكرارها وعبورها إلى المتلقي وشعوره بتقبلها يتم تبنيها دون مزيد من التفكير أو العناء[40]. وكل المؤشرات تدل أمام هذه الوفرة من الصور، على أن وظيفة الطوابع الاستعمارية، انحصرت في تعزيز المكانة الثقافية والعلمية الأوربية[41]، وتقزيم المقومات الحضارية التي يزخر بها هذا البلد مقابل فضفضة الخصال الإيجابية للمجتمع والحضارة الأوروبية[42]، وإزالة جميع آثار الحياة التقليدية[43]، وتعويضها بحياة مرتبطة بالأنماط الغربية الحديثة مع الحفاظ على المشهد المحلي الإفريقي.

2- الطابع والمزايا الاستعمارية: وسيلة لنشر الدعاية

كانت أغلب صور الطوابع البريدية ترفق بالحداثة الأوربية في مجال التقنية، حيث نجد إلى جانب صورة الأهالي بلباسهم التقليدي الرتيب وأنشطتهم البسيطة، طائرة أوربية حديثة الصنع (**طابع رقم 52 و53 و54**)، وذلك بغرض إظهار البون الشاسع بين الأوربيين والأهالي[44]، وقد تم الترويج لهذه الدعاية بالمغرب من خلال الطوابع البريدية الإسبانية ما بين الفترة الممتدة من عام 1900 إلى 1950، وخاصة سنوات 1930 و1940، وتظهر في وحداتها العسكرية، مثل الفيلق، والكتائب المنظمة...، وبعض العناصر التي يمكن أن تشكل الحداثة والتقدم، مثل الصناعة والنقل (**طابع رقم 55 و56**)، حيث كانت تبرز هذه الطوابع ظهور الطائرات التي تحلق على الأراضي المغربية للتأكيد على أن إدارة الحماية نجحت في إنشاء خطوط الطيران المنتظمة بين المستعمرة وشبه الجزيرة، وترمز أيضا إلى ممارسة الحماية وظيفة التهدئة بالمستعمرة الخاضعة لها لتأمينها وحمايتها[45]. وعملت السياسة الاستعمارية، من خلال هذه الطوابع، على صياغة صورة جديدة لهذه المجتمعات، لغاية التهيؤ لاحتلالها، فجاءت تبريراتها واهية لا ترتكز على أساس من المعقولية والمنطق[46]، فكانت تمزج في الطوابع بين عنصرين من الرموز الوطنية الإسبانية البارزة، بحيث كان العنصر الأول مرتبطا بالسلطة الاستعمارية: التاج، ورأس الملك، وخريطة المستعمرة، والعلامة الثانية تعبر عن حياة الأهالي، مثل نسيج الألبسة، والمناظر الطبيعية... (**طوابع 57 و58**) وكان يتم تجميع هذه العلامات بطريقة منظمة[47].

وهكذا، فقد كانت أولى الإجراءات التي قامت بها الإدارة الاستعمارية السعي نحو تقديم متابعة للسكان المحليين من أجل إدخال قيم الحداثة الأوربية، ومحاولة

تهذيب وتثقيف ساكنة المستعمرات التي تعتبرها أجناس بدائية. وترتكز هذه المهمة الحضارية، في نظرها، على الدعاية، مثل تقديم عادات وتقاليد الأهالي ومختلف أشكال الحياة اليومية، في المناسبات الوطنية والدولية، وتقديم بلدانها، وما تزخر به من موارد طبيعية، كوجهة سياحية، ذات أهمية كبيرة، مع التركيز على دور الاستعمار في التنمية المحلية، كوسيلة هادفة، لإقناع هذه الشعوب والرأي العام الأوربي، بفوائد الاستعمار في مجال الأشغال العمومية، والتعليم والصحة، والنقل[48]. فجاء محتوى الطوابع زاخرا بعناصر الحياة والثقافة المحلية الممزوجة برموز الحداثة الأوربية، مثل دمج القاطرة والطائرة وخيوط التليغراف والسفن والمنشآت الصناعية في مجموعة من الأنماط المحلية[49]، وهي محاولة لتأسيس علاقة حقيقية بين الصورة التي يقترحها الطابع البريدي والواقع الذي يستجيب له، وبعبارة أخرى، خلق حلقة وصل بين الرموز الدالة على الحداثة الأوربية والرموز المحلية داخل الطابع الاستعماري[50].

ورغم الأهمية التي حظيت بها هذه الطوابع، فإنها أيقونات تحتوي على غموض عميق، خلال فترة ما بين الحربين، إذ كانت القضايا المعقدة والمتناقضة أحيانا موضوعات المشروع الإتنوغرافي الأوربي منذ 1950.[51] ويظهر هذا الغموض، بشكل جلي، في تمثلات طوابع الصحراء الخاضع للسيطرة الإسبانية، والذي يهدف إلى نقل الإيديولوجية الأوربية إلى الأهالي ذوي البشرة السمراء، وجعل المنطقة مستعمرة إسبانية بامتياز[52]، لتصبح بذلك الطوابع البريدية بمثابة مادة خام، للتعريف أولا بهذا المكون المجتمعي، الذي يعيش حياة بسيطة، عند الأوربيين، ومقارنته بالتقدم الذي عرفته الحداثة الغربية، والتي أصبحت تتردد بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية.

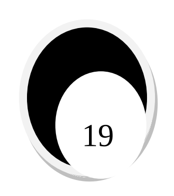
إن الطابع الاستعماري لغة رمزية مرنة تراعي التفاصيل أكثر تعقيدا، من قبيل مزيج من العلامات غير المتجانسة، ثم إن الطابع الذي يتسم ببساطة المشهد اليومي عند ساكنة المستعمرات، يحمل في الآن نفسه شعار النبالة عند الأوربيين، وهي دلالة على محاولة تدجين المستعمِر رموز السكان الأصليين، وبناء وهم التآلف بين ثقافة البلاد والثقافة الأجنبية، لكن تم التأكيد على زيف هذا التآلف الثقافي بين العناصر الرمزية من خلال استخدامه كإشارة دالة على الدول المستعمِرة، وعلامة مميزة لها. وأخيرا جاء استخدام الطابع البريدي الأوربي من أجل تقديم واقع السكان المحليين في تصنيف مادي ومفاهيمي غريب عنها[53]. وعلى أية حال، يبقى الطابع البريدي، كوثيقة تاريخية مهمة، يحمل مستويات متعددة لها مغزى ودلالات وشعارات وممارسات يحتضنها المشروع الاتنوغرافي الأوربي[54]، فهو يعد جزءا من أرشيف سياسة الاستعمار الأوربي، بين الحربين، ويحمل أحيانا مظهر التوتر، ورسالة إيديولوجية أحيانا أخرى.[55] ولا تكاد الصورة التي قدمتها الإدارة الاستعمارية تراوح مكانها عن النموذج المألوف في الكتابات الإثنوغرافية المفعمة

بالنظرة الغرائبية للسكان المحليين (**طابع 59**)، فالطابع البريدي سليل الإنتاجات الاستعمارية الأخرى، وجاء هو الآخر من أجل إثارة الفضول الأجنبي حول طرق حياة السكان ومعيشتهم ومظاهر ثقافتهم وتقاليدهم، وتضع عبر تقنية المقارنة بين عوالم هذه المجتمعات البدائية الفقيرة وما توصلت إليه أوروبا على مستوى التقنية الحديثة. وهو ما يعني أن الطابع البريدي وسيلة لممارسة الدعاية الاستعمارية بإضفاء صفة "الغرابة" على الأهالي. حيث "**صوروا بلباس تقليدي رث منهكين في أعمال بسيطة لا تسمن ولا تغني من جوع، ومأواهم الأكواخ في القرى والمداشر، فالأكواخ كانت ترمز إلى شعب عديم الحركة**"[56]. وهذا التمثل المثير يظهر سطوة الأوربي من خلال المقارنة بين الحضارة الأوربية والإفريقية التي بدأت، بشكل جلي، منذ الأربعينيات[57]، وهو تمثيل كان غائبا، بشكل عام، عن طوابع الفترة الممتدة من عام 1920 إلى 1940، حيث بدأت تظهر أشكال أخرى من الوجود الأوربي، مثل صور عن الطب الغربي والتجارة والصناعة، وتم مع هذه المزايا الاستعمارية حضور الرجل الأبيض[58]. وهذه المواجهة بين العوالم الأوربية والإفريقية يمكن ملاحظتها أو متابعتها عبر الأنظمة التصويرية المتطورة، التي اختزل بعضها جوانب غير متجانسة لواقع الأهالي، ففي طابع إسباني لعام 1965 أظهر طبيب إسباني يعطي حقنة لرجل صحراوي (**طابع60**)، وهذا العمل ليس موجها إلى هذا الرجل فحسب، بل هو يعني مجموعة كاملة من أفراد المنطقة، وهي صورة تشكل جوهر مسيحي، حيث تكون إسبانيا قادرة على منح مستوطناتها إداريين أكفاء في مستوى الأخلاق المسيحية، وقادرين على كسب ثقة الأهالي[59].

لا شك أن مطابقة حضارتين في أيقونة دقيقة هي خدعة استغلت في العديد من الطوابع الاستعمارية في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين[60]، حيث بدأت تظهر، بشكل واضح، في الطابع البريدي رموز دالة على الحداثة الأوربية، إلى جانب الثقافة والعادات والحياة اليومية العادية للأهالي[61]. وبالتالي، فعادات وتقاليد سكان المستعمرات تكون دائما دونية[62]، وهناك رسالة أخرى وهي أن تقاليد السكان الأصليين على وشك أن يتم تسجيلها في المتاحف الأوربية[63]، كذاكرة لهذه المجتمعات البدائية، والتي قد تثير فضول المتلقي الأوربي مما يساعد الأجهزة الاستعمارية على تبرير احتلالها وتثمين غزوها لهذه البلدان.

خاتمة

نخلص مما سبق ذكره، أن الطوابع البريدية الإسبانية بالمغرب الصحراوي، قد حملت بعدا إيديولوجيا واضحا، حيث إن شكلها ومضامينها كشفت عن رغبة المشروع الاستعماري في ترسيخ صورة مماثلة مفادها



الدونية والتحقير للساكنة المحلية، هذا ناهيك عن الفقر وعدم قدرة هذه المستعمرات على حكم نفسها، فهي مختلفة عن عقلية المتلقي الأوربي المتحضرة، والذي جعلته يتقبل فكرة البون الشاسع بين الإنسان الأوربي المتحضر والإفريقي الهمجي المتوحش. ومن ثمة، فهذه الطوابع، مثلها مثل الإنتاجات الاستعمارية الأخرى تعبر عن الجهة الغربية وعن مصالحها وامتيازاتها[64]، فهي الأخرى تحمل خطابا غير متكافئ بين الطرفين، فالغرب يقوم بتزييف واقع هذه المجتمعات ويحقره، في حين لا قدرة للآخر الإفريقي على الرد، فهم المغلوبون على أمرهم لا الغالبون، وهم المدرسون لا الدارسون، في حين أن إنتاجات الأوربيين تبدو هادئة ومنزوية، فهي واثقة من علمها وحجتها[65]. ورغم التحول الذي عرفه إنتاج الطابع البريدي بدءا من 1952 إلى 1962 من ارتكازه على نموذج شعار النبالة نحو نهج تصميم إتنوغرافي أكثر حداثة[66]، فإن علامات الوجود الأوربي تبقى مهيمنة وحاضرة بقوة، مثل الرموز والشخصيات الفاعلة في السياسة الأهلية بإفريقيا[67].



(6) (5) (4) (3) (2) (1)

(13) (12) (11) (10) (9) (8) (7)

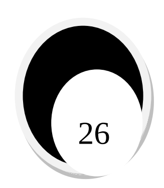
(19) (18) (17) (16) (15) (14)

(25) (24) (23) (22) (21) (20)

(31) (30) (29) (28) (27) (26)

(37) (36) (35) (34) (33) (32)

(43) (42) (41) (40) (39) (38)





(49) (48) (47) (46) (45) (44)

(55) (54) (53) (52) (51) (50)

(60) (59) (58) (57) (56)

المصدر[68]

الهوامش:

[1]– أكمير، يوسف، "الخطابات التاريخية الإسبانية المتخصصة في شمال المغرب ما بين 1860– 1956: خصوصياتها ومميزاتها"، ضمن ندوة: "**من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن**"، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 133، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2006، ص 10.

[2] – Scott, David, « L'image ethnographique : le timbre-poste colonial français africain de 1920 à 1950 », **Protée**, vol. 30, n° 2, 2002, p 51.

[3] – Albert COUSIN, Daniel SOURIN, **Le Maroc**, Libraire du Figaro, Paris 1905, p 295.

[4] – Corrales, Eloy Martín, « Marruecos y los marroquíes en la propaganda oficial del Protectorado (1912-1956) », **Mélanges de la Casa de Velázquez**, Nouvelle Série, 37 (1), 2007, p 96.

[5] – Stampworld.com/en/stamps/Morocco.

[6] – Hernández Ramos, María José, **La emisión de Marruecos de 1928 y Mariano Bertuchi [Texte imprimé] : correo y filatelia en el Protectorado Español**, 1ª ed. Barcelona : Afinet, 2013, 1 vol, p 109.

[7] – Ibid, p 110.

[8] – Stampworld.com/en/stamps/Morocco.

[9] – Emin. Th, **Chronique Universelle et Émissions Nouvelles a Cataloguer**, Le Collectionneur de timbres-poste, Numéro 581, 71eme Année, 25 septembre 1935, p 242.

[10] – Ibid, p 248.

[11] – Ibidem.

[12] –Ibid, p 249.

[13] – Sánchez, Jesús García, **Sellos Y Memoria : La construcción de una imagen de España**,

1936–1945, Ediciones Universidad de Salamanca Stud. hist, H.ª cont, 25, 2007, p 37.

[14]- يؤكد يوسف أكمير (م. س، ص. 18) أن البرنامج السياسي لفرانكو ارتكز على إحداث إطار مؤسساتي للبحث والإشهار في أهمية العلاقات التاريخية والثقافية بين المغرب وإسبانيا، وقد أنشا بموجب ذلك معهد مولاي المهدي للدراسات المغربية، والجنرال فرانكو للبحث الإسباني – العربي بتطوان، ومعهدي الدراسات السياسية والدراسات الإفريقية بمدريد.

[15] - Stampworld.com/en/stamps/Morocco.

[16] - Ibidem.

[17] - أكمير، يوسف، ص 17- 18.

[18]- نفسه، ص. 12- 13.

[19] - Ibidem.

[20] - Ibidem.

[21] - Ibidem.

[22] - Ibidem.

[23] - Ibidem.

[24] - Corrales, Eloy Martín, p 83.

[25] - Scott, David, p 45.

[26] - Ibid, p 48.

[27] - Ibid, p 49.

[28]- Ibidem.

[29]- بوزويتة، سمير، **مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية (1832– 1912)**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص 223.

[30]- Ibidem.

[31]- نفسه، ص 196.

[32] - Corrales, Eloy Martín, p 100.

[33] - Scott, David, p 46.

[34]- بومدين، سليمان، "صورة الأهالي في الخطاب الكولونيالي: الجزائر نموذجا"، **مجلة شؤون اجتماعية**، العدد 117، ربيع 2013، ص 185.

[35]- نفسه، ص 190.

[36]- طارو جون، طارو جيروم، **الرباط أو الأوقات المغربية**، تعريب حسن بحراوي، سلسلة نصوص مترجمة رقم 16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 2012، ص 49.

[37]- بوزويتة، سمير، ص 27.

[38]- عبد الرحمن، بوعلي، تمثلات صورة " الآخر" العربي والإفريقي في الأدب الفرنسي: (نسق الصورة النمطية)، **مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية**- العام الثالث- العدد 23، أكتوبر 2016، ص 15.

[39]- بومدين، سليمان، ص 186.

[40]- بوعلي، عبد الرحمن، ص 18.

[41] - Scott, David, p 53.

[42]- بوزويتة، سمير، ص 221.

[43] - Ibid, p 51.

[44]- بومدين، سليمان، ص 192.

[45] - Corrales, Eloy Martín, p 99.

[46]- بوزويتة، سمير ، ص 217.

[47] - Scott, David, p 47.

[48] - Corrales, Eloy Martín, p 84.

[49] - Scott David, p 52.

[50] - Ibidem.

[51] - Ibid, p 45.

[52] - Hassana, **Les timbres du Cameroun** : **1884 – 2010**, mémoire présenté en vue de l'obtention du diplôme d'études approfondies DEA D'histoire, faculté des arts lettres et sciences humaines, universite de Ngaoundere, 2007-2008, p 36.

[53] - David, Scott, p 49.

[54] - Ibid, p 46.

[55] - Ibidem.

[56]- بومدين، سليمان، ص 191.

[57] - Ibid, p 49.

[58] - Ibdiem.

[59]- بوزويتة، سمير، ص 25.

[60] - Ibid, p 50.

[61] - Ibidem.

[62]- نفسه، ص 216.

[63] - Ibidem.

[64] - هشام، صالح، **الإستشراق بين دعاته ومعارضه**، بيروت، الطبعة الأولى، 1994، ص 7.

[65]- نفسه، ص. 8.

[66] - Ibid, p 47.



[67] - Ibidem.

[68] - أهمها:

- Scott, David, p 45-54. Th. Emin, p 242.

أغلب قائمة الطوابع مأخوذة عن موقع:

Stampworld.com/en/stamps/Morocco/

وللمزيد من التفصيل عن طوابع المنطقة وخاصة الطوابع الموشحة بعبارة "كابو جوبي" ينظر:

Hernández Ramos, María José , p 109- 112.

قائمة المصادر والمراجع

-أكمير، يوسف، "الخطابات التاريخية الإسبانية المتخصصة في شمال المغرب ما بين 1860- 1956: خصوصياتها ومميزاتها"، ضمن ندوة: **"من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن"**، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 133، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2006.

-بوزويتة، سمير، **مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية (1832- 1912)**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007.

-بوعلي، عبد الرحمن، تمثلات صورة " الآخر" العربي والإفريقي في الأدب الفرنسي: (نسق الصورة النمطية)، **مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية**- العام الثالث- العدد 23، أكتوبر 2016.

-بومدين، سليمان، "صورة الأهالي في الخطاب الكولونيالي: الجزائر نموذجا"، **مجلة شؤون اجتماعية**، العدد 117، ربيع 2013، ص 185- 194.

-صالح، هشام، **الإستشراق بين دعاته ومعارضه**، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.

-طارو، جون وجيروم، **الرباط أو الأوقات المغربية**، تعريب حسن بحراوي، سلسلة نصوص مترجمة رقم 16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 2012.

- Corrales, Eloy Martín, « **Marruecos y los marroquíes en la propaganda oficial del Protectorado (1912-1956)** », Mélanges de la Casa de Velázquez, Nouvelle Série, 37 (1), 2007, pp. 83- 107.

- Cousin Albert, Sourin Daniel, **Le Maroc**, Libraire du Figaro, Paris 1905.

- David, SCOTT, « **L'image ethnographique : le timbre-poste colonial français africain de 1920 à 1950** », Protée, vol. 30, n° 2, 2002, p. 45-54.

- Emin. Th, **Chronique Universelle et Émissions Nouvelles a Cataloguer**, Le Collectionneur de timbres-poste, Numéro 581, 71eme Année, 25 septembre 1935, pp 238- 239.

- Hassana, **Les timbres du Cameroun : 1884 – 2010**, Mémoire présenté en vue de l'obtention du diplôme d'études approfondies DEA D'histoire, faculté des arts lettres et sciences

humaines, université de Ngaoundere, 2007-2008.

- Hernández Ramos, María José , **La emisión de Marruecos de 1928 y Mariano Bertuchi [Texte imprimé] : correo y filatelia en el Protectorado Español,** 1ª ed. Barcelona : Afinet, 2013, 1 vol. (188 p.)

- Sánchez, Jesús García, **Sellos Y Memoria : La construcción de una imagen de España, 1936-1945**, Ediciones Universidad de Salamanca Stud. hist, H.ª cont, 25, 2007, pp. 37-86.

- https://www.stampworld.com/en/stamps/Morocco./